الروائي يتماهى مع الراوي ويناجي أغاثا كريستي

«قد لا يبقى أحد» مانيفستو لأوديسا اللجوء الجماعي عبر يوميات كاتب سوري

السيرة الروائية فن سردي هجين يجمع بين السيرة والرواية، يتماهى فيه الروائي مع الراوي، ويكون مصدرا لتخيلاته مانحا إياه حرية كبيرة في الاستفادة من تجربة الروائي الشخصية، وفي نفس الوقت يصادر حقا يمنحه القارئ لنفسه حين يطابق بين الشخصية الواقعية وسيرتها الشخصية، ربما تلك المصادرة كانت دافعا للروائي والناقد السوري هيثم حسين ليصف كتابه "قد لا يبقى أحد" بأنه سيرة روائية.

أحمد رجب

في كتابه الجديد "قد لا يبقى أحد" لا يخفي الروائي السوري هيثم حسين قلقه من المطابقة بين شخصه الحقيقي والشخصية الروائية في أكثر من موضع من كتابه السارد لسيرة اللجوء.

ويبدو أن الكاتب كان قلقا بشأن تجنيس كتابه، فوصفه في ثناياه بأنه "يوميات بريطانية"، كما يستعيد تعريف الأرجنتيني لويس جروس لكتابة اليوميات بأنها استحضار للأرواح من منطلق إحساس ما بالذنب، كما يثير أسئلة عن علاقة الروائي بذاته وبكتابته، وعن التداخل بين الحقيقة والخيال في ما يسرده الروائي حينما يكتب جانبا من سيرته الذاتية، كما يتساءل عن السيرة، وهل هي قيد بمعنى ما؟ وهل يتعرى الكاتب وهو يدوّن أجزاء من سيرته أو حين يسربها في أعماله؟

الأمكنة الجديدة

حاول هيثم حسين أن يمنح يومياته شكلا روائيا بمناجياته لأغاثا كريستي، فكان العنوان الفرعي للكتاب "أغاثا كريستي.. تعالي أقل لك كيف أعيش"، الذي يشير إلى مذكرات الروائية الشهيرة في سوريا والعراق حينما رافقت زوجها المستكشف الأثري.

> اللاجئون لا يتحملون مسؤولية كونهم كذلك، وقد كانوا في أوطانهم آمنين قبل أن تدفعهم الحروب إلى التشرد

كتاب أغاثا كريستي عنوانه "تعال قل لي كيف تعيش"، وفيه تقول عن عامودا، موطن الكاتب، "كم هو بسيط هذا الجزء من العالم وكم هو بالتالي سعيد، الغذاء هو الهم الوحيد، فإن كان الحصاد وفيرا فأنت ثري حتما وتستطيع أن تقضي بقية العام بكسل ووفرة حتى يحين موعد حراثة الأرض وبذرها من جديد".

وعن افتراضها بأن الشرقيين سعداء يقول إنّ السّعادة نسبيّة، تتمثّل في لحظات ومواقف نتيجة أخبار سعيدة، لا ترسم خطا تصاعديًا أو شكلا كاملا لصورة السّعادة المتخيّلة في الأذهان؛ فلحظات السّعادة هي فواصل الحياة اللغويّة، يشبّهها بعلامات الترقيم التي تهندس سيل الكلمات وفوضاها المتناسلة.

وتستمر المناجيات خلال عدد من الفصول تبدأ بتوجيه الخطاب لها، وكأنها إحدى شخصيات الإطار الروائي المغلف ليومياته.

يستعير هيثم حسين ما جاء في "الأزمنة السائلة" لزيغمونت باومان "اللاجئون في المكان وليسوا منه، فهم مُعلقون في فراغ مكاني توقف فيه الزمن، فلا هم مستقرون ولا هم متنقلون، ولا هم أهل التعود، ولا هم أهل الترحال"، ليصف حاله، موضحا "أجد نفسي في المكان ولستُ منه، فيه ولستُ فيه كأني مُعلق في فراغ يؤرجحني بينما الزمن ينسل ويتبدد، لأتلاشى معه وأرتحل في الذاكرة والذكريات، أحفر في ذاتي عساي أستدل إلى مصالحة مفترضة مع نفسي"، فلعله يستعيد التوازن بعدما وجد نفسه عاجزا عن إقامة أي علاقة حقيقيّة بالمكان، أو عاجزا عن تحقيق التّوازن النفسي المطلوب مع ما حوله، فكان مضطرا إلى العودة للحلم وللذكريات ولأيّ ماض يعيد إليه بعض التّوازن.

وتستمر عملية التذكر في محاولة من الكاتب للتصالح مع ذاته المشردة، عبر مواجهة الذات، وهي المواجهة التي ظل يهرب منها لسبعة عشر عاما، وقد وجد سبيل المصالحة بين ذاكرته والآلام المتراكمة حينما اغترب عن وطنه، وعن ذلك يقول "تُرينا الغربة الانتماء في عدسة الذات والآخر، يكون البعد سبيلا إلى الاقتراب والتماهي أكثر، قد يصبح الوطن في بعض الأحيان حجابا، قد تغدو الغربة مرآة وسبيلا إلى الوطن". ويضيف في موضع آخر "دفعتني الأمكنة الجديدة إلى الغوص في داخلي، ومراجعة ذاتي وأيامي الماضية، وذكريات الأسى والقهر والهدر التي أحملها معي كأعباء تثقل كاهلي، أقنعت نفسي أن الزمن القادم لا يحتمل المضي تحت أعباء تلك الأحقاد والأحزان، وأنه يحتاج للتخفيف من حمولتها لأتمكن من العبور إلى غدي بأقل الخسائر الممكنة".

اللاجئ منبوذا

تحت عنوان "أن تصبح منبوذا" يكتب هيثم حسين "أن تصبح لاجئا يعني أن تصبح مذعورا، أن تصبح منبوذا رهين ذاكرتك وذكرياتك وحنينك ولن تتحرر من سطوة ذعرك الداخلي". ويتذكر "كنت أنبذ نفسي دون أن يتراءى لي أي نبذ في نظرات الآخرين إلي، أصبحت حساسا لدرجة كبيرة إزاء كل تفصيل يصادفني أقوم بتأويل نظرات الناس العفوية بأنها نظرات ازدراء وتشكيك وأود لو أستطيع أن أبرر لهم أسباب وجودي بينهم. والمشكلة أنه حين يقترف أحد اللاجئين جريمة ما فإنه يتسبب بالحرج للجماعة التي ينتمي إليها ويكون التصنيف وسيلة للتعريف وإطلاق الأحكام تاليا أو تطبيق القيود والحدود بطريقة ما".

ويشير الكاتب في فصل آخر إلى وقوع اللاجئ في إشكالية تعريف نفسه، فإن كان مهاجرا فالمهجر لن يصبح وطنا، وإن ظل لاجئا فإنه يبقى على الحواجز بينه وبين عالمه الجديد، وتبقى الغربة ملتصقة بالروح، إذ ينظر اللاجئ بمنظار الغريب في العالم الذي لا يريد الاندماج فيه، وتتقاطع رغبات كل اللاجئين في الحصول على ملاذ آمن، لذا لا تختلف حكايات لاجئ عن آخر، وإن كانت هناك بعض تباينات، فالهارب من الحرب ليس كالهارب من الفقر. وفي مراكز التجمع، يدفع الحذر والتوجس والارتياب اللاجئين إلى الكذب وإخفاء بعض التفاصيل عن بعضهم البعض، ويبدو المخيم بروتينه اليومي كسجن كبير.

ويفسر الكاتب هذه الظاهرة والتشكيك المنتشر بين اللاجئين من أبناء البلد الواحد بالازدواجية والتناقض اللذين يسمان حياة اللاجئ في واقعه الجديد.

يرفض الكاتب اعتبار اللاجئين ذئابا منفردة، ويتساءل هل هناك توجه عالمي جديد بهندسة وطن متخيل للاجئين عبر العالم، وهل يشكل اشتراك اللاجئين بحالة اللجوء عاملا حاسما لبلورة تصور عن وطن ما، عابر للأوطان والحدود، ويدين تصوير اللاجئين وكأنهم جلادون لغيرهم ومهددون لسلامتهم في أوطانهم الآمنة، فاللاجئون لا يتحملون مسؤولية كونهم كذلك، وقد كانوا في أوطانهم آمنين قبل أن تدفعهم الحروب إلى التشرد، لذا فالأجدى البحث عن حلول لمنع الحروب والجرائم التي تدفع إلى اللجوء. فاستمرار مسببات اللجوء يؤدي إلى تفاقمها واليأس من الرجوع لأوطان قد لا يبقى فيها أحد.

ونذكر أن كتاب "قد لا يبقى أحد" قد صدر عن دار ممدوح عدوان.

اللاجئون في المكان وليسوا منه (لوحة للفنان معتوق بوراوي)

محاكمة عاشق القاصرات ماتزنيف مناسبة لمحاكمة حقبة أدبية فرنسية كاملة

حسن الوزاني
كاتب مغربي

لم تعرف فرنسا نقاشا حادا يستحضر موضوع الأدب بعلاقته بالجريمة كما تشهده الآن. إنه النقاش الذي بدأ مع صدور كتاب "الموافقة" للناشرة الفرنسية فانيسا سبرينغورا، الصادر في بداية الشهر الجاري عن دار كرايس، والذي تعود فيه إلى فضح قصتها مع الكاتب الفرنسي غابريال ماتزنيف.

وتعود تفاصيل الجريمة، حسب الكتاب، إلى بداية الثمانينات، وكانت فانيسا سبرينغورا، التي تبلغ الرابعة عشرة من عمرها حينها، مهووسة بالقراءة لملء الفراغ الذي خلفه طلاق والديها، ليدخل على الخط غابريال ماتزنيف، البالغ حينها الخمسين من عمره، بعد عشاء عابر، مستثمرا صورته ككاتب يجر وراءه كثيرا من الأعمال والجوائز. وستتنبه فانيسا، مع توالي السنين، إلى حقيقة الرجل المرعبة والذي كان مهووسا بعلاقاته مع المراهقات وبإقباله الكبير على السياحة الجنسية، خلافا لصورته الفاضلة كرجل أدب.

وخلال الثلاثين سنة السابقة، ظلت أحلام فانيسا سبرينغورا، كما تقر بذلك، مشحونة بوجوه الموتى وبالرغبة في الانتقام، لتقرر في نهاية المطاف قلب السحر على الساحر وخنقه داخل كتاب. وهو ما قد وُفقت فيه، بفضل جرأة ونجاح الكتاب على مستوى الانتشار. إذ أن الطبعة الأولى التي ناهز عدد نسخها العشرة آلاف نسخة قد نفدت في أقل من أسبوع، كما تصدَّر الكتاب قائمة مبيعات موقع أمازون.

أما غابريال ماتزنيف، الذي ظل يعبث بسذاجة المراهقات طيلة عقود، فسيجد نفسه أمام القضاء، وأيضا ممنوعا من التداول. إذ سيقدم ناشره غاليمار على سحب "يومياته". كما أوقفت مجلة لوبوان تعاونه معها. كما لم يتردد المركز الوطني للكتاب في سحب الدعم المالي المخصص له. وسيجد ماتزنيف نفسه، في نفس الإطار، محروما من وسام الفارس الذي كان قد حصل عليه، وهو الذي راكم كثيرا من الجوائز في غفلة عن طبيعة ما يكتبه وعن جرائمه. ولعل من أهمها جائزة الأكاديمية الفرنسية، الأرقى على مستوى أوروبا. أما الأمر المفارق فهو كون جرائم غابريال ماتزنيف لم تكن خفية. إذ سبق له أن أصدر، خلال منتصف سبعينات القرن الماضي، كتابه "الذين هم دون السادسة عشرة"، وهو العمل الذي "يُنَظر" فيه لجرائمه، مستعرضا فلسفته في عشقه للأطفال، بشكل مقزز، دون أن يتردد في ذكر أسماء بعض ضحاياه، مع الإشارة إلى أعمارهم. وسيكون الكتاب وصاحبه ضيفين على البرنامج التلفزيوني الشهير "أبوستروف" الذي كان يعده برنار بيفو.

أما الغريب فهو أن يصدر نفس الكتاب في طبعة أخرى، بدعم من جهة رسمية فرنسية، وهو المركز الوطني للكتاب. وسيُصر ماتزنيف في مقدمة الطبعة الجديدة على عدم ندمه وعلى تشبثه بكل حرف كتبه، بل إنه يهنئ نفسه على نشره عمله خلال لحظة لم يكن "الصراصير يهيمنون على المشهد الأدبي الفرنسي"، في إحالة على بعض الأصوات المعدودة التي بدأت تعي بجرائمه.

وبعد سنتين على صدور الكتاب، سيكون غابريال ماتزنيف وراء كتابة العريضة التي تندد باعتقال ثلاثة فرنسيين بتهمة الدخول في علاقات مع أطفال دون الرابعة عشرة، في إطار ما يعرف بقضية فرساي. أما الغريب فهو أن تضم اللائحة جون بول سارتر وسيمون ديبوفوار ورولان بارث وجاك دريدا وجاك لانغ، الذي سيصير في ما بعد وزيرا للثقافة ثم مديرا لمعهد العالم العربي بباريس.

وبذلك، لا يجب النظر إلى ما قام به غابريال ماتزنيف، خلال عقود، باعتباره أمرا فرديا ومعزولا، بل إنه قد يشكل تعبيرا عن تمثل مجتمع بكامله، ابتداء من الضحايا الذين فضلوا الخلود إلى الصمت، إلى الناشر الذي يواظب على نشر أعمال تُشتم فيها رائحة البيدوفيليا، إلى مؤسسات الدعم الرسمية التي تختبئ وراء إشاعة اللغة الفرنسية، إلى القضاء الأصم، إلى قنوات الإعلام التي تفتح أبوابها أمام الرجل وأمثاله، إلى من يضع على كتفيه وساما بدرجة فارس، وأخيرا إلى القارئ الذي ظل مواظبا على التهام مثل هذه الأعمال دون كلل ولا ملل.

ولم يكن غابريال ماتزنيف الأول ولا الأخير الذي يقترف هذا الذنب الذي لا يغتفر. فقد سبقه، وإن كان ذلك بشكل أقل احتشاما، الروائي هنري دي مونترلان، صاحب كتاب "الأطفال"، والكاتب أندري جيد، والروائي يان كيفليك، وكتابه "القاصر". كما لا يجب أن ننسى أن فترة ما بعد ثورة 1968 التي شهدتها فرنسا قد اتسمت بإعادة النظر في كل القيم المرتبطة بنظام العائلة، عبر تحرير الطفل من "سجنه"، كما يقر بذلك عالم الاجتماع الفرنسي بيير فيردراغر في كتابه "الطفل الممنوع". وسيتم الاستناد في ذلك، سواء إلى النظرية الماركسية أو إلى النظرية الفريودية، اللتين تجعلان من الطفل مساويا للراشد.

ولم يكن هذا الأمر جديدا، إذ أن صورة الكاتب ظلت خلال قرون، حسب الباحثة لوسيل نيزارد، تتأسس على تمثله باعتباره منعزلا عن الجماعات. وهو الأمر الذي كان يمنحه هامشا أكبر لتجريب كل ما هو غرائبي وكل ما هو ممنوع.

ويقتضي كل ذلك أن يذهب النقاش نحو محاكمة مرحلة بكاملها، بدل "إعدام" ماتزنيف أو اختزال القضية إلى حدث تنتعش به وسائل الإعلام التي كانت تفضل الصمت عن جرائم الرجل.

> صدور كتاب «الموافقة» أثار مجددا جدلا حول مدى الترابط بين الأدب والأخلاق

ولعل من حسنات صدور كتاب "الموافقة" أنه فتح من جديد الجدل بخصوص الترابط بين الأدب والأخلاق، وأيضا بخصوص الحدود التي يمكن أن يقف عندها النص الأدبي ومعه كاتبه.

يبقى أن السياق العربي لا يجب أن يبقى بعيدا عن هذا النقاش، ليس فقط بسبب انتشار البيودفيليا داخل المجتمع، ولكن أيضا بحكم حضورها بشكل كبير في تراثنا الشعري العربي، إلى درجة أننا قد نجد أنفسنا أمام جنس أدبي بكامله، وهو "شعر الغلمان". والأكيد أن ذلك لا يقتضي حرق هذا التراث، بما قد يضمه من نصوص كتبها كبار الشعراء، ولكنه يستوجب على الأقل فهم دواعي استمرار الذهنية العربية في التماهي مع هذه النصوص.

كتاب مثير للجدل